بورسعيد..
قصيدة عشق فى الوطنية

بورسعيد .. قصيدة عشق فى الوطنية.. وقصة كفاح على مر الزمن.. ومطمع غزاة الغرب، ومحطة القادم والمسافر.. بوصفها مدينة محاطة بالمياه.

ففى الشمال البحر المتوسط، وفى الجنوب الغربى بحيرة المنزلة، وفى الوسط تخترقها قناة السويس.

والثابت تاريخيا، أنه لم يكن فى موقع المدينة عند مدخل القناة أى تجمع بشرى، بل كانت هناك قرية للصيادين عند «الجميل» التى تبعد غربا بنحو ٨ كيلو مترات، وعلى قرابة ٢٨ كيلو مترا، كانت هناك مدينة ساحلية اندثرت معالمها منذ قرون، كانت تسمى «برامون» أى مدينة الإله «آمون»، ثم أقام اليونانيون ضاحية لهما أسموها «بيلوز» وقد انسحب اسم «بيلوز» على الموقع كله، فسميت منطقة «بيلوز» ومعناها «الطينة» لكثرة الأوحال بها، وهى مواجهة لما يعرف باسم «برمون» أو «برما» .. ومنها أسماها العرب «الفرماء» وهى المدينة المعروفة حاليا بـ «تلال الفرما» التى كانت مدخل المسلمين إلى مصر.

□ ومن موقع الفرما كمدينة حدودية ساحلية، كانت - بالتالى - مسرحا للعديد من المعارك الحربية والغزوات العسكرية وبالتالى كانت

حصنا متقدما للدفاع ضد الغزاة، وقد أعيد بناء حصونها عدة مرات، إلا إنها انتهت على يد الملك «بلدوين الأول» ملك بيت المقدس أثناء غزوات الصليبيين على مصر فى العصور الوسطى، وتحديدا فى العام ١١١٨ م.

□ وبور سعيد اسم مركب من «PORT» ومعناها ميناء وكلمة «سعيد» حاكم مصر وقت منح امتياز حفر قناة السويس، الذى بدأ مع صباح يوم ٢٥ إبريل ١٨٥٩، عندما رفع العلم المصرى على الموقع، حيث ألقى الفرنسى ديلسبس كلمة وسط العمال والفنيين من الأجانب والمصريين الذين استجلبوا من قرى دمياط وفارسكور وكانوا نحو سبعين عاملا.. «باسم شركة قناة السويس العالمية البحرية وتنفيذا لقرار مجلس إدارتها نضرب أول معول فى هذه الأرض لنفتح أبواب الشرق لتجارة الغرب وحضارته عن طريق مدخل الشرق» .. ثم أمسك بالمعول وضرب به الأرض مبتدئا أعمال الحفر.. ورحلة النضال للشعب المصرى فى بورسعيد، التى كتب أبناؤها بعرقهم ودمهم ودموعهم تراجيديا الإنسان المصرى على شط القناة..

الفدائية هواية !

□ والثابت تاريخيا.. أن إلغاء معاهدة ١٩٣٦، قد واكبه على صعيد الوطن بأكمله حركة سياسية وطنية نشطة واكبتها - أيضا - ظهور نشاط الفدائيين ضد معسكرات الإنجليز منذ عام ١٩٥٠، حيث شهدت تصاعدا فى عام ١٩٥١.. وإن كانت ذروتها فى عام ١٩٥٦.. مع العدوان الثلاثى على مصر.

□ والواقع أن عدوان ١٩٥٦، لم يكن وليد تأميم قناة السويس فقط، ولكنه كان مخططا استعماريا لإجهاض الحركة الثورية فى مصر التى بدأت ملامحها تتضح مع فجر ٣٢ يوليو ١٩٥٢..

□ وأثبتت المقاومة الشعبية التى أقسم رجالها وأطفالها ونساؤها على البذل والعطاء من أجل الوطن فكان لهم ما أرادوا.. الوطن من نصيبهم والشهادة من نصيبهم والعزة والكرامة من نصيبهم أيضا..

□ وعندما يسجل التاريخ وقائع ما حدث فى بورسعيد وهو يغنى على أوتار السمسمية:

مور هاوس ليه بس جيت

من لندن هنا واتعديت!

وبتظلم آه ولا خليت

واهى موتك جوه البيت!!

ويقول التاريخ أيضا مع البورسعيدية:

بحروف من نور وحروف من نار

اكتب يا زمان مجد الأحرار

مقدرش عليه الاستعمار!!

فإنه سيدرك أن النصر، كان من نصيب الحق، وكان الحق - ولا يزال - من نصيب الشعوب التى تبحث عن حريتها، ومنها مصر بطبيعة الحال..

حسن أحمد: عضو مجلس الشعب المصرى (السابق) وأستاذ الإدارة بجامعة قناة السويس، عاشق بورسعيدى، أو قل «درويش» فى حب هذه القطعة الغالية من أرض العرب «بورسعيد».

يقولون عنه فى المدينة الصامدة، إنه «رجل موسوعى» «فهو صاحب عقلية مرتبة، يعى الحقائق التاريخية، وعيا سياسيا واجتماعيا، وقد أفاده جيداً قراءاته ودراسته المتعمقة فى علم الاجتماع والجغرافيا السياسية (!!) خاصة، وأنه واحد من تلاميذ كل من عالم الاجتماع الكبير د. سيد عويس، والدكتور جمال حمدان صاحب أعظم مؤلف فى القرن العشرين فى مصر «شخصية مصر».. وقد أعطاه ذلك رؤية بانورامية علمية للتاريخ المصرى خاصة فى هذه المنطقة.

وكان الحوار معه - خاصة وأنه لم يبرح بورسعيد طوال عمره - !! متعة ذهنية وعقلية، أضفت على ملفنا الإنسانى، فهما متعمقا وعلميا لشخصية البورسعيدى المقاوم، المحب للبقاء على أرضه !

- قلت: أستاذ حسن.. ونحن بصدد الحديث عن «قصيدة عشق» اسمها «بورسعيد المقاومة» المناضلة، عبر مائة سنة أو يزيد.. دعنى أسألك: عن سمات الشخصية البورسعيدية، الرافضة، الصامدة ؟

- يقول فى تأمل: تكونت السمات الخاصة للشخصية البورسعيدية عبر أجيال، وانصهرت النوعيات المختلفة التى قدمت إليها عبر السنين، وأصبحت شخصية ذات معالم واضحة، وكانت البداية فى عام ١٨٥٩.. حيث قدم الفوج الأول من عمال الحفر المشاركين فى القناة من محافظة الدقهلية، أما الفوج الثانى، فقد جاء من محافظة الشرقية.. ثم توالت

أفـواج أخرى من: الدقهلية، الشـرقية، صعيد مصر خاصة من أسـيوط الواصلـة حدودها - فى هـذا الزمان - إلى ما بعد سـوهاج.. وإن كانت عناصر قليلة جاءت من المنيا وقنا وأسوان، والغربية من شمال مصر.

انصهرت هذه النوعيات، أو تلك العناصر فى محافظة، بيئتها فقيرة، لا زرع فيهـا ولا نبـات كل مـا تأكله «مسـتورد» عـبر حدودها !! فهـى منعزلـة عن جيرانها بمسـاحات مائية ضحلـة، حيث تفصلها بحيرة المنزلة عن محافظتى الدقهلية والشـرقية، وعن سـيناء بحيرة البردويل، وإن كانت بورسـعيد مميزة فى الموقـع بأنها تقع فى أقصى شمال شـرق الدلتا، كما تقع على مشـارف البحر المتوسط، وتخترقها قناة السويس، وهى بذلك تعد البوابة الرئيسية لمصر، والتى يدخل من خلالها القادم من أوروبا إلى بلاد العرب كلها.

وقد فرضت هذه البيئة على السـكان عبر العصـور، فعالية البحر، أو الصراع معه، ولذلك يحلو لى أن اسمى إنسان بورسعيد: «الإنسان الذى يغالب الطبيعة الفقيرة» !! فعليه - إذن - أن يستنبط قوته من الطبيعة، كيف يأكل ؟ كيف يعيش ؟ أين يعمل؟ ومع من يعمل ؟

هكذا فرض على المواطن البورسـعيدى فى تاريخنا كله، والذى يبدأ من ٢٥ أبريل ١٨٥٩، تاريخ أول فأس ضربت فى أرض قناة السـويس، وأول علامة لقيام هذه المدينة، والتى سميت على اسم حاكم مصر آنذاك، أن يغالـب الطبيعة، فضلاً عـن أنه أمامنا مرفق اقتصـادى هام تعيش من خلاله «قناة السـويس» وميناء بورسعيد، وإلى ما قبل المنطقة الحرة

فى العام ١٩٧٥.. كان يقدر عدد الحرف التى تعمل فى الميناء، بطريق مباشـر أو غير مباشر بنحو (٦٢) حرفة.. ذلك يعطى مؤشرا بأن معظم المواطنين الذين يعملون بطريقة مباشـرة أو غير مباشرة، هم يعملون – فـى واقع الحال – بشـكل مذبذب و غير مسـتقر، وتلـك طبيعة عمل الموانئ بشكل عام فى كل الدنيا.

لذلك فقد خضعت بورسـعيد لظروف الاقتصـاد العالمى، فإذا كانت هناك حركة اقتصادية «مزدهرة» عكست نفسها على مواطنى بورسعيد، والعكس كذلك من خلال الكساد العالمى، الذى يفرض ظلاله على حركة العمـل فى المدينـة.. وهذه الحركة الملاحية من خـلال «الميناء والقناة» جعلت المواطن البورسعيدى يذهب صباحاً إلى الميناء ويكد، ويتعامل مع جنسيات مختلفة، فرضت عليه أن يكون «أكثر مهارة وحرفية».

وعامل آخر.. لعب دوراً فى تركيبة الشخصية أن البيئة البورسعيدية، لم تكن – فى البدايـة – تحمل طبيعة بيئة المدينة، ذلك أن المجموعة الأولى التى تولت عملية الحفر فى القناة، والتى بلغت ٨٢ رجلا، كانوا من ريف مصر، من الدقهلية، خاصة مركز فارسكور.

ذلك فضـلاً عن أن المدينة فيما بعد، كانـت محطة للهجرة العالمية، يونـان، إيطاليين، يوغسـلاف، وهذا الاختـلاط الغريب من الأجناس، انعكس على طبيعة حياة البورسعيدى فالعاملون هم المصريون، وأصحاب العمـل هم الأجانب !! .. وقد اسـتطاع المصريون فـى مراحل عديدة من تاريخهم على أرض بورسعيد، إثبات وجودهم خصوصا بعد عام ١٩٥٢.

وأسجل للتاريخ أنه قبل عام ١٩٥٢ كانت فرص إثبات الوجود «محدودة» أما بعد ٥٢، ٥٣، ٥٤ فقد زادت نسبة البورسعيدية الباحثين عن «إثبات الوجود» بدرجة كبيرة.. ذلك أن الجميع كان يبحث عن فرصة الحياة والمستقبل خاصة من الشباب، وبعد رحيل أعداد كبيرة من الأجناس الأجنبية التى كانت تعيش هنا فى بورسعيد.

أقول هنا: إن هذا الاختلاط العجيب بين المصريين والأجانب، جعل «البورسعيدى» أكثر إصراراً على إثبات وجودهم، والذين قالوا للأوروبيين الراحلين: «إننا- المصريين- قادرون على إثبات قدراتنا الذاتية ليس أمامكم فقط، ولكن أمام العالم كله» !!

ودعنى - أضرب مثلا هاما لهذه المشكلة المتفردة - إنه عند «الإعصار العدوانى فى ١٩٥٦، كان التساؤل: هل يترك البورسعيدى المدينة. أو يتصدى بمصريته لهذا الإعصار.

والإجابة - كما سجلها التاريخ هو البقاء والتصدى بكل القوة.. ومثال آخر على شجاعة المصرى فى بورسعيد، أنه عندما دخل الإنجليز مصر فى عام ١٨٨٢ - وبطبيعة الحال لم أكن قد ولدت بعد.. لكن سمعت وقرأت وسجلت فى بحوثى خرج المصريون فى بورسعيد مع عرابى ليعرضوا مطالبهم بكل شجاعة وبسالة، ولم يهابوا القتل، وأذكر أن من بين آثار بورسعيد القديمة قرية تسمى «أحمد عرابى» التى كان قد استوطنها بعض مقاتلى عرابى، وهى تقع أقصى غرب بورسعيد.

إذن: المواطن البورسعيدى - فى كل مراحل حياته - لم يتأثر

بأى عدوان، أو تيـارات أجنبية وافدة عليه.. وأضرب مثلا فى الحرب العالميـة الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) هـل تعاون المصريـون مع الإنجليز؟ أبدا لم يحدث!! .. وأريد أن أسـجل: أن العامل البورسـعيدى كان - دوما - أمينا على مصالح بلاده، وقد ذكر د. النجيلى فى دراسة هامة له أن أول أحزاب لعمال الموانئ فى مصر، وأول مناداة بتأميم قناة السويس على أن يديرها مصريون كان من نقابة عمال بورسـعيد فى العام ١٩٢٣ حيث كانت هذه النقابة تضم مصريين وأرمن !!

كما يذكر التاريخ.. أن عمال بورسعيد من خلال نقابتهم فى عامى ٤٨ و ١٩٤٩ تصدوا للشركة الفرنسية، وطالبوا الإدارة بحقوقهم، التى حصلوا عليها بعد سلسلة من المصادمات العنيفة والإضرابات.. وأنه فى عام ١٩٥١ كانت هناك حركة نشطة أسفرت عن مقاطعة السلع الأجنبية فى الميناء.

والمواطن البورسـعيدى لا يهاب شيئا.. يعلن رأيه فى جرأة وبساطة.. دون حس نابض بالمتغيرات السياسية، والدليل أنه مع بداية عدوان ١٩٥٦، قـام بحرق «العلم» الانجليـزى، الأمر الذى أثار رئيسـى وزراء انجلترا وفرنسـا، فضلاً عـن أنه بعد عـام ١٩٧٣.. والمدينة «خربـة» عاد المواطن البورسعيدى «بشوق» واستطاع بشجاعة مواجهة دمار المدينة !!

التغيير.. لماذا ؟

- أسـتاذ حسن: أى شـخصية لها ظواهرها الفولكلورية.. فى شكل «تحية الصباح، الأفراح، مسـاعدة الغرباء» أى الوجه الإنسانى الآخر

للشخصية.. وكانت هنا فى بورسعيد عادات راسخة.. مثلاً فى تحية الصباح كانت «صباحين وحته يا بوص» ! تغيرت الآن إلى «صباح الخير، بونجور، جود مورنج» بماذا تفسر هذا التغيير.. أو ذلك التراجع ؟!

- يقول فى ثقة الباحث: لم تتراجع: ولم تتغير أى من سمات البورسعيدى، ولكنه ما حدث، إنها اتخذت شكلا آخر، فى أغانينا أو عادتنا أو أفراحنا حيث ارتبطت بالعصر الحالى.. مثلا أغانى السمسمية والبمبوطية.. فقد نشأت مع عمليات الحفر فى قناة السويس، حيث الليل الطويل المرهق، والشمس الحارقة، فهم أناس يريدون الترفيه عن النفس، وذلك من خلال الغنوة على آلاتهم الوترية البسيطة، ومع انتقال عمليات الحفر إلى الجنوب فى القنطرة، وفى اتجاه السويس، زحفت هذه الأغانى، وإذا كانت الأغنية الفلكلورية - فى بورسعيد - غير مطورة، ففى الإسماعيلية أضاف عليها عمال الحفر (من الأقصر وقنا) الذين كانوا يحتفظون بأغانيهم، بعض كلماتهم، فحدث الخلط واللهجات الصعيدية فى الأغنية وأؤكد أنه من خلال قراءة دقيقة لأغانى السمسمية، تبين أنها متداولة بين بلاد العرب جميعا !!

وهناك أغانٍ تسمى «الضمة» وهى التى يغنيها عدد من الناس، تبين من الدراسة الفلكلورية أنها ليست بورسعيدية الأصل، إنما وافدة من «دمياط» وإن كانت فى الأصل «أندلسية» !! جاء بها البحارة العائدون من رحلة سفر شاقة ومتعبة، فعندما يصل إلى بر المدينة (دمياط) يستقبله

أهله وعشيرته، منضمين فى أغنية جماعية، ترحيب به، وحتى الآن نجد أن السمسمية والضمة مازالتا موجودتين، وإن كانتا قد طورتا، وأخذتا الشكل الحضرى (الكهرباء فى السمسمية مثل الجيتار) !!

كما أن هناك خاصية أخرى للشعب البورسعيدى، وهى ظاهرة لم أجدها فى أى مدينة أخرى.. وهى أن أسماء الشوارع ترتبط بالدلتا.. ببساطة جداً نجد فى حى العرب (شارع الدقهلية وشارع الجيزة وشارع دسوق) إلخ.. وذلك يؤكد ترابط المواطن البورسعيدى بأمنا العزيزة مصر، وبأسماء محافظاتها !!

وتأتى خصوصية الأفراح البورسعيدية، فلماذا كانت لا تتسم بالفخامة الشديدة، إلا إنها متميزة ومتمسكة بتقاليد راسخة مثل زفة العروس و نقوطها وإن كان النقوط من نصيب القادرين فقط !!

كما أن هناك ظاهرة أخرى.. وهى أن بورسعيد مدينة لا تنام.. لأنها مدينة ساحلية مرتبطة بالميناء. لذلك نجد أن أى سفينة تدخل الميناء نهارا.. أو ليلًا.. تجد من يتعامل معها.. فالشوارع مملوءة بالناس، والمحلات مفتوحة، وهذا «اللا نوم» يؤكد حرص البورسعيدى على مواجهة أى متغيرات اقتصادية، فمثلا أى متغير أو كساد اقتصادى، لا يوقف البورسعيدى عن السعى عن الرزق، بل إنه يجد أشياء أخرى يتكسب منها.. من هنا نشأت كلمة «بمبوطى» وهى من أصل «بوت» و «بان» أى قارب الخشب.. التى تحولت وحرفت إلى «بمبوطى» أى الباحث عن الرزق فى البحر !

هذا – والحديث للأستاذ حسن أحمد مازال البورسعيدى واثقا من ذاته والدليل على ذلك أنه لا يتورع فى أن يقول رأيه بصراحة، محاولا إثبات صحة هذا الرأى بالبراهين والدلائل من القديم والحديث على حد سواء، فهذه العادة لم تتغير وإن كانت قد أخذت شكلا متطورا.

تنشيط الذاكرة!

– قلت: فى إطار تنشيط الذاكرة.. وبحثا عن مدلولات سياسية ذات طابع إنسانى.. استطاعت الشخصية البورسعيدية المصرية قلبا وقالبا أن تنحت لنفسها موقعا متميزا على خريطة النضال المصرى.. أعوام ٥١، ٥٦، ٦٧، ١٩٧٣.. إذن وبوصفك من أبناء هذه المدينة، وضح لنا هذه المدلولات من خلال مواقف إنسانية ؟

– يقول: سأذكر «لوحات» تعيها ذاكرتى من النضال البورسعيدى:

□ فى صبيحة يوم وقف إطلاق النار فى العام ١٩٥٦ وظهور القوات الغازية فى شوارع بورسعيد، كان الناس فى قمة التمرد على النظام، وظهر هذا اليوم تبدل الموقف تماما، وأشهد الله والتاريخ فإننى لم أجد مواطنا واحدا «رخوا» بل إن أعصاب الناس كانت متوترة ومشدودة إلى أقصى درجة بينما لم نكن نعلم حقيقة الموقف، أين وصلت هذه القوات.. فلم تكن هناك وسائل اتصال فهى مقطوعة والكهرباء مقطوعة، والمياه مقطوعة، وأذكر هنا أننا عرفنا أن «صاحب محل فراشة»

يملك «ماكينة كهرباء» فذهبنا إليه فوجدنا قد أوصل «الراديو» على ماكينته ومفتوح على «محطة القاهرة» فتجمهر الناس بالمئات يسمعون صوت القاهرة وهو يعلن «الله أكبر» فى عصر هذا اليوم كانت المقاومة قد اشتدت، وجعلت الناس أكثر التهابا، هذا فى الوقت الذى لم نكن ندرى فيه متى نأكل بل ومن أين نأكل ؟!

□ الملاحظة الثانية: أن المقاومة بدأت تأخذ شكلا جديدا بعد أيام قليلة، طلبنا السماح للصيادين بصيد السمك من بحيرة المنزلة، حيث كانت فرصة لإدخال السلاح إلى بورسعيد، مع عناصر جديدة للمقاومة «أبو نار - جلال غريب - كمال رفعت» وأسماء كثيرة لا يستطيع الإنسان نسيان دورها البطولى.

□ وأذكر هنا كتاب قرأته لصحفى بلجيكى كان مرافقا للقوات الغازية فى العام ١٩٥٦ قال فى مذكراته: «ظلت الطائرة تحوم حول موقع الهجوم لفترة كبيرة ووجدنا مياها من كل ناحية وكان هناك تردد فى الهبوط وعاد الطيار ليغير زاوية دورانه وإذا بنيران تخرج من الأرض وتسلط علينا من كل اتجاه ! وعندما هبطنا، كانت الخسائر فى القوات هائلة، وفى نفس الوقت طلبت القوات البريطانية الهدنة، وكان هذا اليوم.. يوم الاثنين» !!

□ الملاحظة الثالثة: ذلك الالتحام التام بين الشعب والشرطة والقوات المسلحة، وأذكر فى ذلك الدور الكبير الذى لعبته سيدات بورسعيد، اللاتى أخفين الفدائيين من غدر قوات الاحتلال.

- وماذا عن ملحمة أكتوبر ؟

- الصورة متباينة بعض الشيء، ففى عام ١٩٦٧ ضربت السويس ومن بعدها الإسماعيلية إضافة إلى بورسعيد وإن كانت فى مواقع متطرفة وكانت الخسائر محدودة فى وابور المياه.. كان ذلك «٦٧ - ٦٨» وفى العام ١٩٦٩ تم تهجير المدينة «النساء والعجائز» وكانت أبرز مواقع التهجير فى دمياط ورأس البر والدقهلية وبقى الرجال فى حالة صمود رائع وتماسك قل أن يوجد سوى فى الملاحم، وفى عام ١٩٧٣ كان الأحرار من جنودنا البواسل بشكل لا يتصوره إنسان فى هذه الدنيا، وفى المنفذ الغربى، رأينا القوات الإسرائيلية التى ضربت كوبرى الرسوة، وقطعت مياه ترعة الإسماعيلية الموصلة لبورسعيد، وكان المواطنون يجلبون المياه بالقوارب عبر بحيرة المنزلة، لكن اليهود لم يستطيعوا الاقتراب من المدينة أو غزوها، بل إن قواتنا دخلت شمال سيناء.

وفى اليوم ٦ أكتوبر واسمح لى بعودة إلى هذا اليوم التاريخى الفذ على صعيد التاريخ العربى كله: عرفنا بالمعركة.. لكن ؟

- لكن ماذا ؟

- شعرنا بحذر غير عادى !! إلى أن أعلن أن قواتنا المسلحة «عبرت» ساعتها عرفنا أن ساعة الاقتحام قد حانت !! بل إنها تمت بنجاح، الأمر الذى أدركنا معه أن الجندى المصرى، قد كتب بدمه وثيقة النصر، وغسل عارا لم يرتكبه !!

– أستاذ حسن: ما الملمح الإنسانى لسنوات الاستنزاف الست «٦٧– ٧٣» فى بورسعيد خاصة فيما يتعلق بالمواطنين العاديين ؟

– يقول: فى شوارع بورسعيد، كنت من النادر أن ترى «سيدة» الجميع رجال، إما بالملابس الكاكى، وإما بالملابس المدنية، أما السيدات القليلات اللاتى كن موجودات – هنا – فكن ممرضات المستشفيات !

كنت ترى ارتباطا وحنينا شديدا بين المكان والناس ! فنجد أن المواطن البورسعيدى يحييك دون سابق معرفة، ولكن الترابط وحنين الناس مع بعضهم، كان أشد تماسكا وترابطا.. ذلك فضلا على لهفة الناس على بعضها، ويتجلى ذلك فى السؤال الدائم عن الذى يتأخر عن العودة، والبحث عنه، إلى أن يتم الاطمئنان عليه .

لكن الذى لا أنساه.. يوم أن ألغيت تصاريح دخول بورسعيد فى العام ١٩٧٤.. ذلك المهرجان الكبير، والتدافع الشديد من الناس للعودة، عربات تجرها الخيول تمتلئ بالناس، والأشد إنسانية ذلك الشيخ المسن الذى يقبل أرض المقابر، ويبكى فرحا لأنه سيدفن فى بورسعيد. !